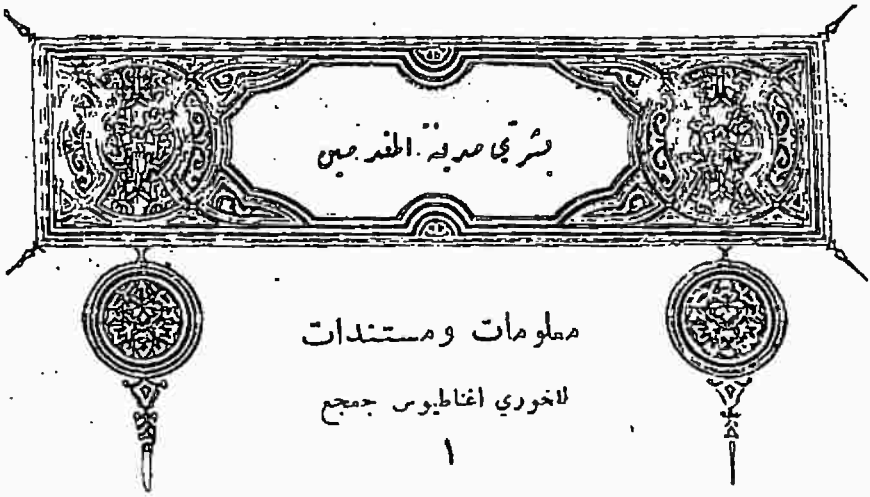

معلومات ومستندات

للخوري اغناطيوس جمجم

١

جمع حضرة الخوري اغناطيوس جمجم كثيرًا من المعلومات عن بشري ، مسقط رأسه ، وطريقة معيشة اهلها وعاداتهم في الافراح والاحزان ؛ مما وقف عليه بنفسه او اخذه عن شيوخ البلدة ، او نقله عن التواريخ القديمة . ولما كانت اكثر تلك المادات قد اضمحلت او كادت تتجاه المدنية العصرية ، رأى من المفيد تدوينها ونشرها مستندات متفرّقة تفيد من لعله يهتم بتاريخ مدينة المقدّمين .

موقعها الطبيعي

موقع بشري عن سطح البحر ١٤٥٠ مترًا ، وتبعد عن بيروت ، عاصمة لبنان ، مئة وعشرين كيلومترًا . وقد يهجت السيّاح بمناظرها الجذّابة المختلفة لونًا وموقعًا . وكثيرًا ما ردّد بعض هؤلاء انها افضل من سويسرة بمشاهدها الجميلة ، فتراها من الشرق بساطًا اخضر اللون ، جنة فيها بيوت مظللة باشجار باسقة ، محاطة بزهر ابيض فاحمر فاصفر . اما من الجنوب فتبين سقوفها مرتبة بعضها فوق بعض ترتيب حب الرمان . وهي تكتسي في الربيع حلة خضراء تسرّ النظر وتأخذ القلب وتبرز كعروس متشحة بثوب العرس وانحتها تعطر الآفاق من شذى الورد والبنفسج والبيلسان والشقائق . وفي الصيف والخريف تمتاز باثمار اشجارها وبرودة مائها . اما في الشتاء فتلبس ثوبًا من الثلج ابيض ناصعًا .

ومما يحببها الى الزوار ما يرونه فوق حصرون من جبال تظهر اولًا صغيرة وتزداد صعودًا رويدًا رويدًا الى ان تبلغ ظهر القضيب ، اعلى قمة في لبنان

اذ يزيد ارتفاعه على ثلاثة آلاف متر . واذا قطعه المسافر شاهد شرقاً سهولاً تتموج تموج البحر خضرة ، وفي آخرها مدينة بعلبك الشهيرة ، فيسحره المنظر ولا يتنبه الا لخرير مياه الثلوج فيرد غليله. وفي رجوعه يصل الى قلعة اللصوص فيرى بنظارته قرب غروب الشمس ، جزيرة قبرس وجبالها . وعند وصوله الى الشفق يجد امامه ما سكبته يد الطبيعة من المناظر الخلابة من قرى واشجار وخضرة واودية ولاسيما وادي قاديشا المتدفقة مياهه ، وعلى ضفتيه الطواحين والجنينات والاشجار والبيوت القديمة.

وان مدينة المقدمين مقطوعة عن جوارها ، منفردة . فهي آخر سكن من لبنان القديم ، مبنية في لحف جبل يقيها الريح الشمالية ، معرضة لنور الشمس منذ بزوغها حتى غروبها . فبردها غير قارس ، وابواب بيوتها متجهة للجنوب .

حدودها جنوباً نهر قاديشا ووادياه المشهور بصوامعه التي كان عددها ، كما يقال، عدد ايام السنة، وكان يتصاعد دخان مخورها صباحاً كالضباب ؛ وشرقاً نهر نبات ؛ وغرباً نهر الرويس ؛ وشمالاً الجلة وشير حاطوم . وهي كثيرة المياه فيها نهر قاديشا ، ونبات ، والرويس ، وفي وسطها يشطرها من الشرق الى الغرب نبع مار سمعان المشتهر ببرودة مائه العذب وشلالاتها شلال قاديشا ، ونبات ، وهوة حج فارس. وعيونها عديدة نذكر منها عين البياض، وعين العسل، وعين الشاقوف.

سكانها

كان عدد سكانها اثني عشر الفاً ، يقسمون الى ثلاث طبقات : كهنة ، واعيان ، وشعب . الكهنة كان اعتبارهم اعتبار المسيح ، كلمتهم نافذة ، ولهم الاحترام واول متكأ . وعند مرور الكاهن كان افراد الشعب يحيونه ويطلبون بركته ، وفي وجوده كان حديثهم حديث تقوى واحتشام.

وكان السكان من عناصر مختلفة ، ولكل عنصر زعيم مترفع عن مباشرة الشعب ، من المقام الاعلى ، يقفون امامه باحترام ويحيونه بالسلام . وفي الاعياد يترادون الى بيته علامة اقرارهم بالجميل وخضوعهم واحترامهم . اما الزعيم

قطبي الاعتناء برجاله والمحاماة عنهم وسد احتياجاتهم . وكان لـه السلطة ان يقاصّ من اذنب ، ويستخدم من اراد ، لانه هو المرجع والمسؤولية عليه . فالزعماء كانوا على عدد العيال ، لكل عيلة زعيم . وعند الحاجة تجتمع الزعماء وتتبادل الآراء في خير الوطن ، وصون الادب ، والدفاع عن العرض . وعند الحرب على الزعيم ان يقدم الذخيرة ومواد القتال.

ورجال بشري رجال بأس وشغل في الصيف والربيع ، كل واحد يشتغل املاكه . وفي اواخر الخريف ووقت الشتاء ، يتمرّنون على الحرب بالمصارعة والمباطحة ورمي النشاب والرصاص . وكل من اصاب النيشان كان يحمل على الراحات ، ويُترنّم باسمه . وكثيرًا ما كان يُنصب الميدان فتنقسم الخيّالة الى شطرين يتمرّنون على الكرّ والفرّ . يبرز الخيال ويطلب خصمه ، فيتضاربان ويتسابقان . واذا ارتدّ احدهما الى الوراء برز من حزبه فارس يأخذ بثأره ، وغالباً ما كان ينقلب المزح جدًّا ، فيتضاربون ويتقاتلون ، ويخرجون من المعمعة مجروح وثياب ملطخة بالدماء.

اخلاقهم

اهل بشري لينو العريكة محبون للغريب ، بيوتهم مفتوحة للضيافة ؛ ضيفهم مكرم ومعزز يُقدم له الاكل والشرب والمنامة دون ثمن،ولذلك سميت « ام الغريب » . وكل من جاءها وجد الحرية والسلام والاكرام ، حتى اصبحت محطًّا لكل مظلوم طريد .

وكثيرًا ما كان يلجأ اليها امراء آل الحرفوش من بعلبك عندما كانت تطلبهم حكومة الشام فيحتمون في بشري مع عيالهم.

ومن مظاهر كرم البشراويين ومحاماتهم عن الضيف ما يروى عن احد سكان دوما من انه خطف عروساً من قريته والتجأ الى مخائيل المعروف بابي سمعان جمجم ، وكان هذا غنيا كريم الاخلاق ، فقال له الضيف :« انا دخيلك واصد معروفك خوفاً من الامير بشير . » فاجابه ابو سمعان :« الضيف معزز عندنا ، والدخيل يُفدى بالدم . وانا اتعهد لك اني ادفع مائة كيس وكيس

واعلق مائة مغلاية ومغلاية ، واكلّلك .» فطلم الامير بذلك فارسل الى المضيف قائلاً :« تتم قولك وكلل العريس » فكان ما قال وارجع العريس الى اهله بالاكرام . وقد روى هذه القصة الاستاذ فؤاد افرام البستاني في كتابه « على عهد الامير » بعنوان « خطف عروس ».

فهذه المعاملة اكثرت فيها السكان حتى ابتدأ بعضهم بالانتقال فوصلوا الى سهل بطبك واتخذوا محلات معروفة بضياع البشراوية فعمروا سبع ضيع . ولما فتحت امير كة اخذوا بالمهاجرة.

قوتهم اليومي

قد اشتهروا بالمعيشة القشفة ، فكان اكلهم دفعتين في النهار قبل الظهر دفعة ، وقبل الغروب الدفعة الثانية. اما طعامهم فكان شكلاً واحداً على المائدة ، خلا الزيتون والجبن . وكانوا لا يأكلون اللحم الّا مرة واحدة في الاسبوع ، الا في ايام المرفع المستى عندهم « حد الذبيحة ».

اما الصوم فكان خمسين يوماً لا يأكلون فيه لحماً ولا بياضاً . واغلب ايام السنة كانت عندهم قطاعة عن الزفر.

هذه المعيشة سببت لهم عمرًا طويلاً ، بعيدين عن الامراض . وما كنت ارى في صباي من مات الا من الشيخوخة ، ولا سمعت بالامراض المختلفة خلا مرض الجدري.

عوائدهم

كانوا يتبعون ، في تأدية الاحترام ، ما قيل في « الكتاب المقدس » ان الله تعالى امر موسى ان يخلع نعليه عند تقدمه الى العليقة المضطرمة نارًا . ولذلك كانوا يخلعون الحذاء من ارجلهم ، متقدمين حفاة ، مطأطئي الرؤوس . ولا يجلسون الى ان يأذن لهم كبير المحل . واذا سمح بالتدخين كانوا يقولون : « دستور يا شيخ » . وعند تركهم صاحب المقام كان رجوعهم وراء الى ان يصيروا خارجاً . اما سلامهم فكان اولًا برمي اليد الى الارض ، ثم وضعها على القلب ، ثم وضعها على الرأس والفم . في الاعياد كان قولهم في عيد الميلاد :

« عيد مبارك » وفي عيد الكبير : « المسيح حقاً قام » واما آخر الرفع فكان كلامهم : « مثلما رقدتم بخير تصومون بخير » . ويقدمون باكورة اثمارهم في كل موسم .

اما النساء فعادتهن تقدمة شيء من عندياتهن وقت زيارة المرضى ، وتهنئة الغائب بالسلامة .

وقد كان محرماً كل التحريم اجتماع الرجال والنساء ، تمسكاً بالتقليد . فالنساء كنّ ببساطة وحشمة واقتصاد في المعيشة وطهارة وعفاف في الحديث . اشتغالهنّ في المنزل المكتب والمغزل وصنع القمصان والكلسات والاغطية . وكن متحجبات لا يظهرن الا وقت الحرب . حينئذ تراهن سافرات الوجوه سادلات الشعور ، مترنمات باغاني حماسية ، فينشطن الرجال باقوالهن وحضورهن . وعند طرح الصوت تهب الرجال لمقاومة العدو وتظهر النساء تاشدة الاغاني . فمن قولهن :

امش على ما قدّر الله والكاتبو ربك يصير
يا ما حلا ! يا ما حلا ! دم الاعادي ما حلا !

فتردد الرجال آخر كلمة . وتتابع النساء :

وسلاحنا أكله الصدى . . .
لا يلتوي فارسكم ولو اثخنته الجراح
والموت عنده احلى احلى من كأس القراح
نساؤكم وراءكم تتقاتل بضرب الرماح
اولادكم تقول لكم الموت افضل في القتال
ان مات رجل في الوغى اولاده تحمي الديار
فالعرض عندكم ثمين صونوه ايها الرجال

(له صلة)